المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

حركة الوِراقة في العالم الإسلامي
وأثرها في نشر التراث العلمي قبل ظهور المطابع الحديثة
The movement of stationer's trade in the islamic word and its impact on the disseminaition of scientific heritage before the advent of modern presses

أ. مبروك بن عيسى *

تاريخ الإرسال: 14 / 06 / 2020	تاريخ القبول: 15 / 07 / 2020	تاريخ النشر: 01/ 08 /2020

ملخص:

ساهمت الوراقة مساهمة بارزة ومشهودة في نشر التراث الإسلامي في العالم، وعملت على حفظه من الضياع والاندثار، وحافظت على الهوية الإسلامية، وأرست معالم الشخصية الإسلامية عبر الزمن، وحملت النور إلى البشرية، وحفَّزت الهمم، وأثارت العزائم، وحرَّكت الواقع الراكد، ونشَّطت الحياة العلمية والثقافية، ونقلت تراث الأمة عبر الأجيال المتلاحقة، ليكون شاهدا على حضارة الأمة ونشاطها وحركتها العلمية وثقافتها المعرفية بين الأمم في الكون. وبذلك، نالت الوراقة الفضل الكبير والشرف العظيم، بوضعها القلم والقرطاس في خدمة الدِّين والحضارة والإنسانية، ووضعت نفسها قيد الخدمة، ورهن إشارة ملتمسي العلم وطلاب المعرفة حيثما كانوا. ونِعم الوسيلة هي، ونِعم الغاية.

الكلمات المفتاحية: الوراقة؛ العالم الإسلامي؛ التراث العلمي؛ الحضارة؛ المطابع الحديثة.

Summary :

The stationer's trade contributed a prominent and famous contribution to the dissemination of the Islamic heritage in the world, and worked to save it from loss and disappearance, And preserved the Islamic identity, and established the features of the Islamic personality through time, and carried the light to humanity, and stimulated the inspiration, and active scientific and cultural life, and the heritage of the nation passed through successive generations, To be a witness to the civilization of the nation and its activity and scientific movement and knowledge culture among nations in the universe.

Keywords : stationer's trade, Islamic world, scientific heritage, civilization, modern presses.

* أستاذ مؤقت. كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية. جامعة الدكتور الطاهر مولاي. سعيدة.
Benaissa.mebrouk@gmail.com

www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تمهيد

إن دراسة التراث وتحقيقه من الأهمية بمكان؛ في معرفة الشخصية، وتحديد معالم الذات الجماعية المشتركة، ومعرفة مواصفات الأجيال المتلاحقة في المشاهد التاريخية المختلفة في حياة الأمة، واستكمال ملامح الصورة من زواياها وأبعادها المختلفة ضمن النسق العام، ومعرفة التاريخ، والهوية، والانتماء، والموقع الثقافي والوجود التاريخي بين الأمم في الكون، وتحقيق الوصل والاستمرارية المطلوبة في خط الأمة في الحياة.

ومن جملة النواقل الأساسية المدوَّنة التي نقلت التراث في تاريخ السابقين وحفظت علومهم وأعمالهم الثقافية وإنتاجاتهم الفكرية والعلمية المختلفة: الوراقة. وهي أحد الضوامن الموثَّقة الشاهدة على الزمن الماضي منذ قدم الخليقة. فالوراقة هي وسيلة من وسائل الطباعة والنشر والتوزيع، كانت تقوم بدور طليعي تنويري بارز مشهود، في نشر العلم والمعرفة والثقافة، وترقية حضارة الأمة، وتعزيز موقعها، وإعلاء كفتها في ميزان الأمم في العالم.

ويطرح البحث بين يدي هذا الموضوع الإشكال التالي:

ما هي أصول الوراقة في العالم الإسلامي؟ وكيف تعاطت وتأتت، ووصلت إلى ما وصلت إليه، واستطاعت أن تسطع شمسها على الغرب فعلا، فتوقظ الإنسان هناك من سباته العميق في العصور الوسطى المظلمة، كما شهد بذلك مستشرقوه أنفسهم ؟

إذا كان كذلك، فما هي الآداب والأخلاقيات الوراقية الضامنة لتحقيق هذه المقاصد، والوصول إلى هذه الغايات السامية في حياة البشرية ؟

الوراقة

تعريف الوراقة.

الوِراقة: مأخوذة من الورق. قال الخليل: ورَّقَتِ الشَجَرةُ تَوريقاً وأورقت إيراقا؛ أخرجت ورَقَها، والوَراقُ: وقت خروج الوَرَقِ. وشجرةٌ وَرِيقة: كثيرةُ الوَرَقِ، والوَرَقُ: الدَّم الذي يسقط من الجِراحات عَلَقا قِطَعا، والوَرَق: أُدْمٌ رِقاقٌ، منها ورق المصاحف، والواحدةُ وَرَقةٌ، والوِراقةُ: صَنْعَةُ الوَرَّاقِ، والوَرِقُ والرِّقَةُ: اسم للدّراهم، والوُرْقةُ: سَوادٌ في غُبْرة كلون الرَّماد، وحَمامة وَرْقاء وأُنْثِيةٌ وَرْقاءُ. ([1])

وقال القلقشندي: كلمة وَرَق (بفتح الراء): اسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده وَرَقة، وجمعه أوراق ووَرَقات، وبه سمِّي الرجل الذي يكتب ورَّاقاً، والورق في القرآن الكريم يسمَّى: قِرْطاسا،

([1]) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق وترتيب: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1424 هـ - 2003 م، مادة: ورق، 364/04.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وصَحِيفة. ويسمَّى أيضا: كاغد (بغين ودال مهملة)، وطِرْس، ويجمع على طُرُوس، ومُهْرَق، ويجمع على مَهَارِق. ([2])

وفي الاصطلاح: عرَّف العلماء الوراقة تعريفات متقاربة، كما يلي:

- تعريف السَّمعاني (ت 562 هـ): الوَرَّاق (بفتح الواو وتشديد الراء وفي آخرها القاف): اسم لمن يكتب المصاحف والكتب، وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق، أي الكاغد: الورَّاق أيضا. ([3])
- تعريف ابن خلدون (ت 808 هـ): الوراقة: هي صناعة الورَّاقين المعانين للاستنساخ والتصحيح والتجليد، وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصت بالأمصار العظيمة العمران. ([4])

وهناك من أطلق على الورَّاقين اسم: المُصْحَفِيين. وذلك أن الوراقة في بداياتها إنما نشأت من الاهتمام بالمصحف الشريف كتابة ونقشا.

وقد انتشرت هذه التسمية حتى طغت على الورَّاقين الذين ينسخون الكتب غير المصحف، ولذا قيل: « لا تأخذوا العلم عن صُحُفي، ولا تأخذوا القرآن عن مُصْحَفي ». ويطلق على الورَّاقين أيضا: النَّسَّاخون.

فالوراقة هي النساخة، وهي حرفة. وكل من جعل النسخ حرفة يحترفها أو شغلا يشتغل به لنفسه، فهو نسَّاخ، و ورَّاق.

وبهذا يتضح أن الوراقة أعم من النسخ، فهي تشمل التعامل مع الكتاب من جميع جوانبه حتى ينتشر بين الناس. فهي تضطلع بالنشر. ([5])

ومن هذه التعريفات، يتبيَّن لنا أن الوراقة تتضمن جملة من الأقسام والفروع المرتبطة بها ارتباطا مباشرا، كما يأتي:

1 - النسخ. ويشمل التزويق، والتصوير، والتذهيب، والتخطيط.

2 - بيع الورق وسائر أدوات الكتابة، كالأقلام والأحبار، وغير ذلك.

3 - تجليد الكتب.

4 - بيع الكتب. ([6])

([2]) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى 1331 هـ - 1913 م، 476/02.

([3]) أبو سعد عبد الكريم السَّمعاني، الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1408 هـ - 1988 م، 584/05.

([4]) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ضبط: الأستاذ خليل شحادة، ومراجعة: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1401 هـ - 1981 م، 532/01.

([5]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين: دراسة في النشر القديم ونقل المعلومات، مكتبة الرياض – الرياض، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1995 م، ص 30-31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

تاريخ ظهور الوراقة.

ارتبط تاريخ ظهور الوراقة بظهور الورق في حياة الإنسان. ولما شاع الورق وكثر استعماله، ظهرت الوراقة بكل وسائلها ولوازمها ومتطلباتها العملية كأداة من أدوات النشر. ويعد زيد بن ثابت رضي الله عنه أول كاتب للوحي، النموذج للورَّاق الأمين، فقد طلب منه أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه أن يجمع القرآن الكريم ويدوِّنه، ففعل ذلك بمهارة وإبداع. وكانت هذه المهمة من أشد المهام صعوبة وخطورة، إلا أنها أرست دعائم عملية النسخ والتوريق في الإسلام، ورسَّخت مبدأ الأمانة في النقل والتدوين، من وازع ديني وحضاري. وظل هذا المنهج ساريا في الكتابات العربية الإسلامية طوال فترة الخلافة الراشدية.([7]) وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، أمر باستنساخ نسخ رسمية للقرآن الكريم وتوزيعها على البلاد الإسلامية، لمواجهة الاختلاف الحاصل بين المسلمين في القراءات، فنسخت خمسة (05) مصاحف أرسلت إلى عواصم البلاد الإسلامية، وأبقى عثمان رضي الله عنه مصحفا في مقر الخلافة في إدارة الدولة، عرف بـ: المصحف الإمام.

يقول الدكتور ربحي مصطفى عليان: « ويمكن القول: إن الذين قاموا بنسخ المصاحف الخمسة هم الورَّاقون الأوائل في الحضارة الإسلامية. كما يمكن القول: إنّ حركة الورَّاقين بمفهومها الواسع قد بدأت منذ ذلك الزمن المبكِّر». ([8]) وأول ما بدأت الوراقة ببيع الأوراق والأقلام وأنواع الحبر والمداد، وخصوصا بنسخ المصاحف، ثم تناولت كتب الحديث وسائر العلوم الدينية والأدبية. ([9])

وقد مرت الوراقة بثلاث مراحل تاريخية هامة، كما يلي:

1 - **المرحلة الأولى: مجالس الإملاء:** ظهرت الوراقة في هذه المرحلة على شكل مجالس إملاء، وذلك منذ بداية التدوين في مطلع القرن الثاني (02) الهجري. وقد بدأت كظاهرة صوتية ومرتجلة، ثم تطورت بعدئذ، لتصبح ظاهرة كتابية تدوَّن وتنسخ. وكان الشيخ أو الأستاذ المؤلف يلقي محاضرته، ويبدأ الورَّاقون النُّسَّاخ والتلاميذ بكتابتها مباشرة عنه، فيصير كتابا، ويسمُّونه: الإملاء، و الأمالي. وقد شكَّلت هذه الأمالي موسوعات علمية وأدبية. وكانت هذه العملية تأخذ أشواطا طويلة، تصل إلى سنوات في مجالس عديدة في الموضوع الواحد أو في عدة مواضيع، إلى حد نهاية المؤلف وفراغه من الإملاء. وبعد ذلك يجيز المؤلف نسخة واحدة تكون قد روجعت معه، ومع أقرب التلاميذ الملازمين له، والمستملين عنه، ثم تقَّر هذه النسخة في الجامع، ويشهِد الناس بذلك عليها، ويبرِّئ ذمته من أي زيادة تحدث بعد

([6]) د. خير الله سعيد، ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى 1421 هـ - 2000 م، 182.

([7]) د. خير الله سعيد، موسوعة الوراقة والورَّاقين في الحضارة العربية الإسلامية، دار الانتشار العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 2011 م، 01/227-228.

([8]) د. ربحي مصطفى عليان، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م، ص 70-71.

([9]) حبيب زيات، الوراقة والورَّاقون في الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1947 م، ص 06.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ذلك. وكانت وظيفة هؤلاء المستملين في مجالس الاستملاء هي: إعادة ألفاظ المحدِّث، ونقلها عنه إلى الناس. وهذه المهنة الشاقة كانت شائعة ومعروفة، وكان ينتخب لها من ذوي الأصوات الجهيرة المسموعة، واللسان الفصيح، والإصغاء الحسن، والعبارة الواضحة، كي لا يشكل على الناس ما يؤخذ من فيه من ألفاظ وعبارات. وكان بعض المستمعين من العلماء والأدباء لا يأخذون إلا من لسان المحدِّث، زيادة في التحوُّط والتوثُّق في النقل. وكان المستملي يجلس في مقعد مرتفع، ليستنصت الحاضرين، وليعيد كلام المحدِّث، حتى يسمعه من كان بعيدا عنه.

وجرت العادة في هذه المجالس: أن يبدأ قارئ حسن الصوت بتلاوة القرآن، يليه المحدِّث مباشرة، مفتتحا حديثه بالحمد لله والصلاة والسلام على نبيِّه الكريم، ثم يدعو للبلد والسامعين. وبعد أن يستنصت المستملي الناس، يبدأ كلامه باسم الله والصلاة والسلام على النبي الكريم، ثم يشرع في حديثه ابتداء، أو وصلا.

وكان الإقبال الجماعي والتشوُّق المتزايد على المعرفة أحدث حالة من الازدحام في هذه المجالس، حيث تجاوزت في البداية المئات، ثم نافت على الألوف، بما استدعى إخراجها من المسجد، إذ أصبح لا يستوعبها، وأصبح المستملي الواحد لا يؤدي الغرض بمفرده، فازداد عدد المستملين في المجلس الواحد وفي المكان الواحد، فكان في مجلس القاضي المحاملي أربعة (04) مستملين، وكان في مجلس أبي مسلم الكجي في رحبة غسان ببغداد سبعة (07) مستملين، وكتب الناس عنه قياما وبأيديهم المحابر. وكان في مجلس جعفر الفريابي بباب الكوفة ثلاث مائة وستة عشر (316) مستمل. وكان يحضر مجلس أبي الحسن عاصم الواسطي في رحبة النخيل ما يزيد على مائة ألف إنسان. وكان كثيرا ما يعيد مقولاته، لكثرة الناس، فأعاد مرة أربع عشرة (14) مرة، والناس لا يسمعون. وكان هارون الديك المستملي يركب نخلة معوجَّة، ويستملي عليها.

وقد فرضت هذه المجالس نفسها وامتلأت بها المساجد والساحات والسكك، كظاهرة حضارية في الواقع العلمي والثقافي في حياة المجتمع والدولة في العصر العباسي.

ومن هذه الأمالي: أمالي أبي حامد الإسفراييني، وأمالي ابن الحاجب، وأمالي ابن حجر العسقلاني، وأمالي ابن عساكر، وأمالي ابن دريد، وأمالي ابن الشجري، وأمالي أبي عمر محمد المطرِّز، المعروف بـ: الزاهد، وأمالي الزمخشري، وأمالي القالي، وغيرهم. ([10])

2 - **المرحلة الثانية: مرحلة النسخ والمقابلة:** تطورت الوراقة في هذه المرحلة، وتحولت عن كونها مجرد عملية سماعية مباشرة من المؤلف إلى اعتماد منهج المقابلة بين النسخ المنقولة عن المؤلف، وذلك حينما أصبحت مهنة الوراقة تفرض منهجية علمية دقيقة على محترفيها لتجد أعمالهم طريقها إلى القبول والنشر، وذلك بالقيام بالمطابقة الحقيقية على أصل المخطوط، وبمصادقة المؤلف والقراءة

([10]) د. خير الله سعيد، ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، ص 184-195.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

عليه، فصلا، فصلا. وعند الانتهاء من ذلك، تؤخذ موافقته العلنية أمام الناس وداخل المسجد، وبكلِّف شخصا أو أشخاصا محدَّدين، يسمِّيهم المؤلف، ويعطيهم الإجازة، ويرخِّص لهم، ويسمح لهم بالتداول والنشر، ويشهِد الناس على ذلك.

وعملية القراءة على المؤلف قد تأخذ وقتا طويلا، تبعا لوقت المؤلف وفراغه، فقد كان العلماء والأدباء والمؤرخون يمنحون الورَّاقين أوقاتا معلومة، للمراجعة والتدقيق، بغية الترخيص والإجازة. وكانت هذه العملية تفيد المؤلف في التحقيق، بالحذف والإضافة والتعديل، ونحو ذلك. وقد يعيد المؤلف صيغة الإجازة عند إعادة طبع الكتاب، إذ كانت كل صيغة للإجازة تخصَّص لمخطوط واحد. وهذا يدل على أن الكتاب قديما كان يمر بعدة مراحل قبل إخراجه، بداية بجهد المؤلف في تحضيره واستجماع مادته، ثم قراءته على الجمهور في مجالس الإملاء، بحضور الورّاقين، ثم قراءته قراءة أخيرة من الورَّاقين على المؤلف، للمصادقة والإجازة والنشر.

وكان الورَّاقون يضطلعون بما عرف عندهم بـ: رسوم الكتابة، وفق العرف الوراقي، وذلك بتصدير الكتاب، ومقابلة النسخة بالكتاب الأصلي، ومراجعة اللغة، وتجاوز الخطأ في النسخ، وغيرها من أمور الكتابة المستخدمة في دواوين الدولة أو عند الورَّاقين.

والتصدير: هو كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، في أول أي كتاب يكتب، ثم الدعاء، ويكون تحت البسملة، ومساويا لها في المساحة، وكتابة التاريخ عند بعض الكتَّاب، لبيان المتقدِّم من المتأخر، ونحو ذلك. ولا يفسح بين البسملة وبين السطر الذي يليها من الدعاء، ولكن يفسح بين الدعاء والسطر الذي يليه من سائر المخاطبة. ولا يتجاوز الدعاء ثلاثة أسطر على المشهور. وبعد ذلك يستهل الكلام بـ: أما بعد؛ وهي فصل الخطاب. ويختم الكتاب باسم كاتبه. وفي زمن الخلافة: الدعاء في آخرة لولي الأمر. ([11])

3 - **المرحلة الثالثة: مرحلة التخصُّص الوراقي:** أخذت الوراقة تتفاعل علميا وحضاريا مع تطورات العصر. فبعد إرساء مبادئ وقواعد الوراقة، اتجهت الوراقة نحو منهج التخصص الوراقي، واختطت طريقها نحو الازدهار العلمي والثقافي والفني في كل مجالات المعرفة. وهذه المرحلة هي المرحلة الأكثر نضجا في العملية الإبداعية للورَّاقين. وقد أضيف إلى هذه المرحلة تقييدات كثيرة على الورَّاقين، حيث توجَّب على الورَّاق الناسخ أن يكون عالما بتخصصه، ناقدا، يتخصص في فن معين من الفنون وينسخ به فقط، كالقرآن الكريم أو الحديث النبوي أو الشعر أو النثر أو اللغة أو التاريخ أو الفلسفة والتراث الشعبي، وغير ذلك من الفنون المختلفة. وهنا ظهر مبدأ الحاشية في التوريق، لتوضيح ما يقع فيه المؤلف من أخطاء لغوية أو نحوية أو عروضية، ويصحِّحها الورَّاق بيده، وهو إبداع ثقافي أضفى حالة من الرقي المعرفي على تقاليد الكتابة العربية الإسلامية، إذ بهذه العملية حافظ الورَّاقون على الأمانة العلمية في عملية النقل من الأصل المخطوط.

([11]) المرجع السابق، ص 202-225.

www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وعلى الرغم من النكبة العظيمة التي أصابت بغداد على يد المغول سنة 656 هـ إبَّان العصر الذهبي للعلوم والمعارف في حياة الأمة الإسلامية، غير أن الوراقة سارت في اتجاه التطور أكثر فأكثر. وبذلك، فإن المخطوطات المكتوبة في القرون المتأخرة، بدءا بالقرن الثامن (08) الهجري، تميَّزت بالوضوح والدقة والكمال عن غيرها من المخطوطات المكتوبة في القرون السابقة. ([12])

الحاجة إلى الوراقة.

ظهرت حاجة الإنسان إلى الوراقة شيئا فشيئا بصفة ماسة وضرورية، لمباشرة حياته اليومية بيسر وسلاسة، وذلك لغرض التعلم والدراسة والمطالعة والتعرف والاكتشاف، وكذا إثبات الحقوق، وتوثيق عقوده ومعاملاته اليومية، للقضاء على المنازعات بين أفراد الأسرة والمجتمع، وتماشيا مع اتساع الدولة وضخامة أعبائها ودقة مخططاتها في تغطية الاحتياجات والمتطلبات الثابتة والطارئة، ومواجهة اللوازم الحضارية في الشأن الرسمي والعام.

يقول ابن خلدون: « كانت العناية قديما بالدواوين العلمية والسجلات؛ في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط. وكان سبب ذلك: ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة .... وكانت السجلات أولاً لانتساخ العلوم وكتب الرسائل السلطانية والإقطاعات، والصكوك في الرُّقُوق المهيأة بالصناعة من الجلد، لكثرة الرِّفْه، وقلة التأليف في صدر الملة، وقلة الرسائل السلطانية والصكوك، فاقتصروا على الكتاب في الرَّق، تشريفا للمكتوبات، وميلا بها إلى الصحة والإتقان، ثم طما بحر التأليف والتدوين، وكثر ترسيل السلطان وصكوكه، وضاق الرَّق عن ذلك، فأشار الفضل بن يحي بصناعة الكاغد، وصنَعَه، وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه، واتخذه الناس من بعده صحفا لمكتوباتهم السلطانية والعلمية، وبلغت الإجادة في صناعته ما شاءت ». ([13])

وقد دعا القرآن الكريم إلى القراءة والكتابة، وذكر الصحف والرَّق والقرطاس، وسمَّى سورة باسم: القلم، وفي ذلك تنويه بهذه الأدوات، وإشارة إلى أهمية تسخيرها في مصالح الإنسان في الكون. كما دعا إلى توثيق الديون، في أطول آية؛ وهي آية المداينة، بما يدل على أهمية الكتابة والتوريق والتوثيق في ذلك. ولا يستغني الإنسان عن الوراقة، إذ هي أساس العلم والتعلم، وهي دليل المعرفة، وهي أداة الإثبات والتصديق، ووسيلة النهوض والتطور في حياة الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية عامة.

حرفة الوراقة.

احترف الناس الوراقة لأسباب ودوافع مختلفة، إما حبا في الوراقة وتعلقا بها، لفضلها وشرفها وأثرها في الدين والدنيا، وأما لتخصصهم وحسن خطهم، وإما بحثا عن الرزق، بسبب الحاجة وقلة ذات اليد، وغير ذلك.

([12]) المرجع السابق نفسه، ص 242-246.

([13]) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، 532/01.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وفي كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني: عن أبي حكيمة العبدي قال: « كنت أكتب المصاحف بالكوفة، فيمر علينا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فيقوم، فينظر، فيعجبه خطنا، ويقول: هكذا نوِّروا ما نوَّر الله ». ([14]) وقد روى المؤلف نفسه: أن عبد الله بن عوف استكتب رجلا من أهل الحيرة مصحفا، فأعطاه سبعين (70) درهما. ([15])

وعن مالك بن دينار قال: « دخل عليَّ جابر بن زيد، وأنا أكتب المصحف، فقال لي: ما لك صنعة إلا أن تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة. هذا والله الكسب الحلال. هذا والله الكسب الحلال ». ([16])

وقد نشأت الوراقة كحرفة إسلامية في الحواضر والمدن الكبرى، وكان للدين الإسلامي أثره الواضح في صياغتها وإخراجها، لذلك فقد كانت البدايات الأولى لها في المساجد كمكان أو مقر للنشاط، وبعلوم الدين كبداية للامتهان في هذا الصنف من الحرف. وقد شكَّل جامع المنصور ببغداد؛ وهو أكبر جوامعها، نقطة مركزية لبدء ظاهرة الإملاء على طلاب العلم، فقد كان هذا الجامع أشهر مركز للتعليم في الدول الإسلامية، وكان العلماء والخطباء والأدباء يتوقون للإملاء والتدريس فيه. فقد عرف عن الخطيب البغدادي أنه لما حج، وشرب من ماء زمزم، سأل ربه ثلاث حاجات: « أن يحدِّث بتاريخ بغداد، وأن يملي الحديث بجامع المنصور، وأن يدفن إذا مات عند قبر بشر الحافي ». وكان له ما أراد.

وبهذه المساجد بدأت حركة النهضة العلمية والأدبية، حيث كان الفقهاء يملُون على تلامذتهم علوم الشريعة وعلوم اللغة. وكان يحضر هذه المجالس مئات العلماء والفقهاء وطلاب العلم. ([17])

وفي أواخر القرن الثالث (03) الهجري، كثرت حوانيت الوراقة، وكان الورَّاقون أكثر من في السوق من سائر التجارات المتنوعة. ففي "ربض وضاح" مولى أمير المؤمنين، المعروف بـ: قصر وضاح، بلغ عدد حوانيت الورَّاقين أكثر من مائة (100) حانوت. ([18]) وكان بسوق الورَّاقين دربا للقراطيس، أي سوقا للورق. وكانت دمشق والقاهرة وحواضر العالم الإسلامي الأخرى، كانت تزخر بحوانيت الورَّاقين، بل بأسواق خاصة بصناعة الكتاب عامة، وبقي ذلك إلى عهد قريب في القرن الرابع عشر (14) الهجري. ([19]) وكانت الوراقة في بداياتها طريقة تعليم لا طريقة تكسُّب، فكان الوازع الديني يؤدي خدمة مهمة في ديمومتها وشيوعها، كفرض يُتقرَّب به لوجه الله تعالى، ولكن عندما أصبحت مهنة، فإن الدافع الاقتصادي تبوأ المقام الأول، وتراجع الوازع الديني، وانحسر تأثيره في الناحية الأخلاقية عند الورَّاق أو

([14]) أبو بكر عبد الله بن سليمان السجستاني، المعروف بـ: ابن أبي داود، المصاحف، دراسة وتحقيق: الدكتور محبِّ الدين عبد السُّبحان واعظ، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية 1423 هـ - 2002 م، 494/02.

([15]) المصدر السابق، 501/02.

([16]) المصدر السابق نفسه، 495/02.

([17]) د. خير الله سعيد، ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، ص 184.

([18]) أحمد بن أبي يعقوب، الشهير بـ: اليعقوبي، البلدان، تحقيق: محمد أمين ضنَّاوي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1422 هـ - 2002 م، ص 35.

([19]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 31.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

المؤلف. ([20]) وكانت الوراقة مهنة عظيمة ومحترمة، زاولها إلى جانب المحترفين بها رجال فضلاء وعلماء أجلاء، منهم: أبو الفرج محمد بن إسحاق النديم، وياقوت الحموي، وأبو حيان التوحيدي، وغيرهم. وقد كان لمشاهير المؤلفين أنفسهم ورَّاقون خاصون، وكان بعض الورَّاقين يسعون إلى المؤلفين للحصول منهم على حق توريق مؤلفاتهم، للقيام بنسخها وتجليدها، ثم تسويقها. فقد كان أبو يحي زكريا بن يحي بن سليمان وأبو القاسم عبد الوهاب بن أبي حية يورِّقان للجاحظ، كما كان إسماعيل بن أحمد الزجاجي يورِّق للمبرِّد. وأصبح الإقبال على شراء الكتب أكثر من طاقة الورَّاقين أنفسهم على تلبيته، إذ لم يكونوا بمفردهم قادرين على تأمين احتياجات الناس، وخاصة الطلبات العاجلة من المؤلفات القيِّمة، فاضطروا إلى استئجار أشخاص، لاستنساخ الكتب الرائجة التي يكون الإقبال عليها كثيرا. وكما تنافس الورَّاقون على المؤلفين، تنافسوا أيضا على تحسين خطوطهم، ودقة ضبطهم، وإجراء التحسينات والزخارف واللمسات الجمالية الجذَّابة على المؤلفات التي ينسخونها، بغية جذب المؤلفين والمشترين إلى عروضهم.

وقد كان الورَّاقون ناشرين وبائعي كتب، ولذا وجدت الحوانيت العامة المفتوحة، فلم يكونوا معزولين في مكاتب لا يرتادها إلا ذوو الصنعة والمهتمون بها، فقد اضطلعوا بمهام النسخ والطباعة والنشر والتوزيع، وكانوا ناشرين بالمفهوم العام للنشر. أما عملهم في المكتبات، فقد كان محصورا في المكتبات التي ينسخون بها، فقد كان في بيت الحكمة ورَّاقون، وكان أصحاب المكتبات الشخصية يوظِّفون ورَّاقين في مكتباتهم الخاصة، كما فعل الواقدي، وحنين بن إسحاق، والجاحظ، والفرَّاء، والفارابي، والقالي، وابن دريد، والكندي، وغيرهم. وكان في مكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون (180) نسَّاخا، وكانوا يتبادلون العمل ليلا ونهارا، بحيث لا ينقطع النسخ، ولا يقل الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين (30) نسَّاخا في أية ساعة على مدار الليل والنهار. وكان لدى ابن مطرِّف، قاضي الجماعة، ستة (06) ورَّاقين ينسخون له دائما، براتب معلوم، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد، فطلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه، فإن قدر على الابتياع منه، وإلا نسخه، ورده عليه. وقد قلَّد الرشيد ابن ماسويه مهمة ترجمة الكتب القديمة، ورتَّب له ناسخين يكتبون بين يديه. وكان يعقوب بن شيبة يفرد أربعين (40) لحافا لمن يبيت عنده من النُّسَّاخ. وكان عند ابن المرزبان خمسون (50) لحافا وكيسا لمن يبيت عنده من النُّسَّاخ، للإشراف عليهم فيما يكتبون. ([21])

وقد أصبحت مهنة الوراقة مصدرا للرزق عند المتخصصين فيها، فازدهرت هذه الصنعة بكثرة المؤلفات وارتفاع أجور النسخ، فابن شهاب العكبري (ت 428 هـ) يقول: إنه كان يشتري الكاغد بـ: خمسة

([20]) د. خير الله سعيد، ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، ص 187.

([21]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 31-34.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

(05) دراهم، فيكتب فيه ديوان المتنبي في ثلاث ليال، ثم يبيعه بـ: مائتي (200) درهم، وأقله بـ: مائة وخمسين (150) درهما. ([22])

وكانت أجرة النَّسخ تغلو وترخص وتختلف باختلاف الأقلام وحسنها وصحة النّقل والضبط، وتزيد وتنقص بنسبة تَغيُّر قيم النقود وصرف الدنانير بالدراهم، وربما غلت أيضا بحسب سرعة النسخ وبطئه. وكانت أجور ورواتب الناسخين عند الملوك والوزراء وأهل الثراء من أعلى الأجور، فقد كانت رواتب بعض النَّقَلة، منهم: حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرَّة، وغيرهم عند بني شاكر، في الشهر نحو خمس مائة (500) دينار للنقل والملازمة. أمَّا محمد بن عبد الملك الزيَّات، الذي كان وزيرا أيام الواثق، فقد كان يقارب عطاؤه للنَّقَلة والنُّسَّاخ في كل شهر ألفي (2000) دينار. وكان المأمون يعطي حنين بن إسحاق زنة ما ينقله من اليونانية إلى العربية بالذهب مثلا بمثل. ([23])

وليس بالضرورة أن يكون جميع الورَّاقين أُجَراء اتخذوا من الوراقة موردا للرزق، بل إن من العلماء من كان يورِّق لنفسه، ويزيد مقتنياته من المخطوطات بما ينسخه هو لنفسه. يقول ابن الجوزي عن نفسه: « كتبت بإصبعيّ هاتين ألفي مجلدة ». ([24])

هذا، وعلى الرغم من أن عددا كبيرا من العلماء والفضلاء اشتغلوا بمهنة الوراقة، إلا أنه كان ينظر في بعض الأوقات إلى منتحلها بشيء من الازدراء. ([25])

فهذا أبو حيان التوحيدي، الورَّاق الشهير، كان ينسخ ذات يوم في دار الصاحب بن عباد، فرآه الصاحب، يقول أبو حيان: « فلما أبصرته، قمت قائما، فصاح بحلق مشقوق: اقعد، فالورَّاقون أخس من أن يقوموا لنا ». وقد وصف أبو حيان حرفة الوراقة بأنها: « حرفة الشؤم ». ويروى أن أبي حاتم كان ورَّاقا في نيسابور لخمسين سنة، قال:

إن الوراقة حرفة مذمومة محرومة عيشي بها زمن
إن عشت عشت وليس لي أكل أو مت مت وليس لي كفن

ويقول الشاعر الأندلسي أبو محمد عبد الله البكري، وكان ورَّاقا:

أما الوراقة فهي أنكد حرفة أوراقها وثمارها الحرمان
شبَّهت صاحبها بصاحب إبرة تكسو العراة وجسمها عريان ([26])

([22]) د. عبد العزيز بن محمد المسفر، المخطوط العربي وشيء من قضاياه، دار المريخ للنشر، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م، ص 82-83.

([23]) د. محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية 1398 هـ - 1978 م، ص 68.

([24]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 34.

([25]) د. ربحي مصطفى عليان، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ص 66.

([26]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 36-37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وهناك من ذم مهنة الوراقة، ورأى أنها مهنة متعبة، وقد عبَّر عن ذلك أبو بكر محمد بن أحمد الدقَّاق، المعروف بـ: ابن الخاضبة (ت 489 هـ)، وهو أحد الورَّاقين الذين اتخذوا الوراقة مهنة لهم، لقلة ذات اليد، ينفقون على أهلهم من منتوجها، وقد اضطر لإرهاق نفسه بالعمل المتواصل، إذ أنه نسخ في سنة واحدة (سنة 466 هـ) صحيح مسلم سبع (07) مرات. يقول عن نفسه: « فلما كان ليلة من الليالي، رأيت في المنام أن القيامة قد قامت، ومناديا ينادي: ابن الخاضبة، فأُحْضِرت. فقيل لي: ادخل الجنة. فلما دخلت الباب، وصرت في الداخل، استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى، وقلت: آه، استرحت واللَّه من النسخ ». ([27]) وعندما سأل أحمد بن عبد الله بن حبيب، المعروف بـ: أبي هفان، أحد الوراقين عن حاله، قال: « عيشي أضيق من مِحْبَرة، وجسمي أدق من مِسْطَرة، وجاهي أرقُّ من الزجاج، ووجهي عند الناس أشدُّ سوادا من الحبر بالزَّاج، وحظي أخفى من شق القلم، ويداي أضعف من قَصَبة، وطعامي أمرُّ من العَفْص، وشرابي أحرُّ من الحبر، وسوء الحال ألزم لي من الصَّمْغ، فقلت له: عبَّرت عن بلاء ببلاء ». ([28])

وهكذا، فإن حرفة الوراقة مرت بأيام رخاء عادت على الورَّاقين بخير كثير، جعلتها محل مدح ومنافسة، ومرت بأيام شدة، جعلتها محل ذم وازدراء. والواقع أن الوراقة تكتسب شرفها من شرف صنيعها، وتعظم بعظمته، بحكم النسبة، بمعزل عن دخل أصحابها ومكانتهم الاجتماعية ونظرة الناس إليهم ومستوى أقدارهم عند العامة والخاصة. فالورَّاق أشبه بالمعلم الذي يعلِّم الناس العلم، إذ هو يخطه بيده، ويضعه بين أيدي العلماء والمتعلمين. وكفى بذلك شرفا وفضلا عند الله والملائكة والناس أجمعين.

الورَّاقون

حقيقة الورَّاقين.

لم يكن الورَّاقون في الحقيقة مجرد ناشرين فقط، بل كانت حوانيت بعضهم تقوم مقام المكتبات والمدارس ودور النشر في العصر الحالي، وكانت حوانيتهم ملتقى العلماء والأدباء، وكان العلماء يكترونها ليلا لإتمام ما كتبوه نهارا. وقد أَلِّف كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير في حانوت ياقوت الحموي. وكان الجاحظ يبيت في حوانيت الورَّاقين يطلع على ما فيها من علوم. فلم تكن حوانيت الورَّاقين مجرد دور للنسخ والوراقة، بل كانت مجالس للعلماء والحكماء والأدباء، من الورَّاقين وغير الورَّاقين، وبمثابة نوادٍ أو منتديات علمية وأدبية وفكرية، فضلا عن كونها دورا للوراقة والورَّاقين. ([29])

آداب الورَّاقين.

([27]) ياقوت الحموي، معجم الأدباء؛ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1993 م، 2357/05.

([28]) أبو إسحاق إبراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: الدكتور زكي مبارك، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت – لبنان، الطبعة الرابعة (بدون تاريخ)، 555/02.

([29]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 35.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

لما كانت الوراقة مهنة ذات أثر علمي وثقافي واجتماعي، تتولى نشر العلم ونقل المعرفة وبث الوعي والثقافة بين الناس، وتساهم في بناء شخصية الإنسان فردا ومجتمعا، ولها صلة مباشرة بحقوق الغير؛ من مؤلفين وكتَّاب، كان لا بد فيها من واجبات والتزامات وآداب وأخلاقيات حسنة تصب في هذا المعين، وتضمن تحقيق هذه المعاني، وتصون هذه الآثار النفيسة عبر الزمن.

ويرى بعض الباحثين أن للورَّاق واجبات: وذلك بأن ينتخب الورق، وينسخ الكتاب، أو يُنسَخ تحت إشرافه، ويصحِّح الأخطاء، ثم يجلِّد الكتاب، أو يُجلَّد تحت إشرافه، ثم يبيعه. ([30]) وينبغي عليه أن يتحلى بجملة من الأخلاق الطيِّبة والآداب الحسنة؛ بما يليق برسالته ويتناسب مع مهنته، ومن ذلك:

1 - **حسن النية:** وذلك أن النية هي الأساس في كل عمل، والوراقة سبب من أعظم الأسباب التي يُتقرب بها إلى الله عز وجل. وعليه: فإنه ينبغي على الورَّاق حسن النية في عمله، فهو يكتب القرآن والحديث والعقيدة والتفسير والفقه، وسائر العلوم الشرعية، وغير ذلك من العلوم اللغوية والكونية، كما يكتب العقود والمعاملات والشهادات والوثائق المختلفة بين الناس. فهو يقدِّم خدمة في سبيل الدين، كما يقدِّم خدمة للمجتمع والإنسانية عامة، بما يجعل النية عنده لازمة، احتسابا وابتغاء للأجر والثواب من عند الله تعالى. ([31])

2 - **الصدق والأمانة:** وذلك بأن يلتزم الصدق في القول والعمل، فيصدق لسانه ويصدق قلمه، ويتجنب الكذب في نقل الروايات، وعدم نسخ ما لا يمت بصلة إلى الواقع. وأن يكون أمينا في قوله وفعله وكتابته وسلوكه، ويحذر الغش في عمله، وفي صناعته وإنتاجه، وفي بيعه وشرائه. وعليه أن يحذر من التدليس في أنواع الورق من حيث الجودة والبياض والصقال، وعدم خلط أصناف الأوراق. وغير ذلك. ([32]) وعلى الناسخ أن يتقي الله تعالى، ولا يكتب عن عجلة، ويحذف من أثناء الكتابة شيئا بغير حق، رغبة في إنجازه، فهو بذلك خائن لله تعالى؛ في تضييع العلم، وجعل الكلام بعضه غير مرتبط ببعض، وخائن لمصنِّف الكتاب، في بتره تصنيفه، وسرقته. ومن حق النَّسَّاخ ألا يكتب شيئا من الكتب المضِلَّة، ككتب أهل البدع والأهواء، كذا الكتب غير النافعة التي تضيِّع الوقت، وليس للدين فيها حاجة، وكذلك كتب أهل المجون ومهيِّجات الشهوة ومثيرات الفتن، ودواعي المحرَّمات والتجرئة على المعاصي، ونحو ذلك. فلا يبيع دينه بدنياه، وليتق الله فيما يكتب، وفيما استؤجر عليه من الأجر. ([33])

([30]) المرجع السابق، ص 31.

([31]) ابن الحاج، المدخل، مكتبة دار التراث، القاهرة – جمهورية مصر العربية، 79/04.

([32]) المصدر السابق، 81/04.

([33]) تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكي، مُعِيد النِّعم ومُبِيد النِّقم، تحقيق وتعليق: محمد علي النجار، و أبو زيد شلبي و محمد أبو العيون، مكتبة الخانجي، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة الثانية 1413 هـ - 1993 م، ص 131.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

3 - **الوفاء بالوعد، وتجنب المماطلة:** وذلك لأن الوفاء بالوعد والالتزام بالمواعيد من صفات المؤمنين الصادقين، وخلاف الوعد والمماطلة بلا حدود والتسويف بغير حق من صفات المنافقين. وفي هذا يقول ابن الحاج: « وليتجنب المماطلة بالشغل، وهذا أولى، بل أوجب أن يوفي بما يقوله، لأنه في محض العبادة، فلا يشوبها لما يناقضها بوقوعه في خلف الوعد بقوله: غدا، أو بعد غد، ثم لا يوفي بذلك. وكذلك يحذر من وقوع الأيمان منه فيما يحاوله ».([34])

4 - **الرفق بطلاب العلم:** وذلك بالتيسير عليهم، وإعانتهم في سبيل طلب العلم بوجه ما، ما أمكن. وذلك من شكر نعمة الله تعالى. ([35])

5 - **طلب الإذن بالنسخ من صاحب المخطوط:** وذلك بأن يأذن له المؤلف بنسخ المسودَّة. وإذا وافق، يبدأ بالنسخ، لتخرج المسودَّة بصيغة كتاب مستوف للشروط، من حيث المقابلة والتصحيح، ونحو ذلك مما ينبغي عند تبييض الكتاب.

6 - **عدم خلط أصناف الورق:** وذلك بتصنيف الورق، وتصفية بعضه من بعض، دون خلط، فالخلط في ذلك نوع من التدليس على المشتري، لأن الورق الخفيف لا يحتمل الكشط والحك، لخفته، بخلاف الورق الثقيل.

7 - **التأكد من خلو الورق المعاد تصنيعه من الألفاظ والعبارات الشرعية:** وذلك كالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ولفظ الجلالة، حيث يتعيَّن على الورَّاق أن لا يعمل شيئا من الورق المكتوب إلا بعد أن يعرف ما فيه، احتياطا، لما قد يكون فيه مما له حرمة شرعية، من الكتاب العزيز، أو حديث النبي ρ، أو اسم من أسماء الله تعالى، أو اسم نبي من الأنبياء، أو اسم ملك من الملائكة، عليهم السلام، فيجتنب ذلك كله، لحرمته وتعظيمه في الشرع الشريف، لأن الصنَّاع قد يدوسون ذلك بأرجلهم وغيرها، وذلك من أعظم ما يكون من الامتهان، والعياذ بالله.([36])

8 - **أن يباشر الورَّاق العمل بنفسه، ولا يوكِله إلى من دونه:** وذلك لأن توكيل الأمر إلى من هو دونه، قد يسيء إلى هذا العمل، وهو يتحمل مسؤولية هذه الإساءة، كمن يشتري المصاحف من تلاميذه الذين يقلِّدون خطه، ثم ينسبه لنفسه، لأن خطه مشهور، ويبيعه بسعر مرتفع. ومثال ذلك: محمد شرف الدين، المعروف بـ: ابن الوحيد (ت 711 هـ)، فقد بلغ الغاية في قلم التحقيق والنسخ، ولم يدانيه في زمانه أحد، وكان يضرب بكتابته المثل، فكانت أعماله رائجة تباع بأعلى

([34]) ابن الحاج، المدخل، 85/04.
([35]) تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكي، مُعِيد النِّعم ومُبِيد النِّقم، ص 132.
([36]) ابن الحاج، المدخل، 81/04-82.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الأثمان، وكان الطلب على أعماله كبيرا، مما دفع به إلى شراء ما كان ينسخه بعض تلاميذه الذين كانوا يحاكون خطه، ويكتب في آخره اسمه، ثم يبيعه بسعر مرتفع. ([37])

9 - **النسخ حسب الأسبقية دون مفاضلة شخص على آخر** ([38]): وذلك بالتزام المساواة والمعدلة بين الناس، وعدم التمييز بينهم بغير حق.

10 - **الامتناع عن النسخ للظلمة:** على الناسخ أن يمتنع عن النسخ لظالم أو من يعينه على الظلم، أو من في كسبه شبهة.

11 - **عدم النسخ داخل المساجد:** وذلك لأن المساجد أماكن للعبادة، ولأن النسخ سبب للرزق، فينبغي تنزيه المسجد عن ذلك، فضلا عن تلويثه بسبب ذلك.

12 - **ترك النسخ في حالة سماع الأذان، والتهيؤ لأداء صلاة الجماعة:** وذلك بحكاية المؤذن، وتحصيل فضل صلاة الجماعة. ([39])

13 - **الطهارة:** يستحسن للناسخ إذا نسخ شيئا من كتب العلوم الشرعية أن يكون على طهارة، ومستقبلا القبلة، طاهر البدن والثياب. ([40]) يقول ابن الحاج: «وينبغي له أنه إذا جلس للنسخ أن يكون على وضوء. فإن شق ذلك عليه، فليكن في أول جلوسه على وضوء، ثم يغتفر له ما بعد ذلك، إلا أن يكون ينسخ في كتاب الله، فلا بد من الوضوء حين يباشره في كل حين طرأ عليه الحدث، اللهم إلا أن يكون ممن تجوز له الصلاة بذلك الحدث، فيتوضأ في أول جلوسه، ويغتفر له ما بعد ذلك». ([41])

14 - **ابتداء كل كتاب بالبسملة:** وذلك بكتابة: "بسم الله الرحمن الرحيم" في أوله. وإذا نسيها المؤلف، كتبها هو. وإذا فرغ من كتابة الكتاب أو الجزء، عليه أن يختم الكتابة بالحمدلة والصلاة والسلام على الرسول ρ، وليختم بقوله: آخر الجزء الأول، أو الثاني، وهكذا. فإن أكمله، فليقل: تمَّ الكتاب الفلاني.

15 - **تعظيم الله تعالى:** ينبغي على الناسخ كلما كتب اسم الله تعالى، أتبعه بالتعظيم، مثل: "تعالى، أو سبحانه، أو عز وجل، أو تقدَّس، أو تبارك"، ويتلفظ بذلك. وكلما كتب اسم النبي، كتب بعده: "ρ". ولا يختصر صيغة الصلاة والسلام على النبي ρ في الكتابة، ولا يسأم من تكريرها، كما

([37]) أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد- الهند ، الطبعة الثانية 1392 هـ - 1972 م، 196/05-199.

([38]) عابد سليمان المشوخي، أخلاقيات مهنة الوراقة في الحضارة الإسلامية. مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض، سنة: 1423 هـ - 2003 م، العدد 15، ص 451.

([39]) ابن الحاج، المدخل، 84/04-86.

([40]) عبد الباسط العلموي، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، بعناية: أحمد عبيد، مطبعة الترقي، دمشق – سورية، الطبعة الأولى 1349 هـ، ص 132.

([41]) ابن الحاج، المدخل، 85/04.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

يفعله البعض، فيكتبون: "صلعم، أو صلع، أو صم، أو صلسم"، لأن ذلك مكروه في عرف الشرع. وكذا الترضِّي على الصحابة الكرام، بكتابة: "رضي الله عنه، أو رضوان الله عليهم" كلما مر اسم أحد من الصحابة. وكلما مر به اسم أحد الأئمة الأعلام وهداة الإسلام السابقين، كتب: "رحمه الله، أو رحمة الله عليه، أو تغمَّده الله برحمته"، ونحو ذلك.

16 - **المعارضة والمقابلة والتدقيق:** وذلك بمقابلة النسخة التي انتهى من كتابتها بالأصل الصحيح الموثوق به، مع التدقيق، وبدون زيادة أو نقصان. ([42]) فعن نافع بن أبي نعيم قال: « قلت لنافع مولى ابن عمر: إنهم قد كتبوا حديثك، قال: فليأتوني حتى أقيمه لهم ». وعن هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه: « أنه كان يكتب العلم للناس، ويعارضه لهم ». وقال الإمام الشافعي ويحيى بن أبي كثير: « الذي يكتب ولا يعارض، مثل الذي يدخل الخلاء، ولا يستنجي » . وقد بلغت عناية العلماء بالمعارضة إلى درجة أنهم عدوا النص المنقول بدون معارضة كأنه لم يكتب أصلا، فعن هشام بن عروة بن الزبير قال: « قال لي أبي: كتبت ؟ قلت: نعم، قال: عارضت ؟ قلت: لا، قال: لم تكتب ». ([43]) وكان يتداول بين أهل الشأن: « أكتب وقابل، وإلا اطرح في المزابل ». وهي مقوله لمحمد المسناوي الفاسي. ([44])

17 - **العرض:** أي المراجعة. وذلك بمراجعة الكتاب بعد الفراغ منه، لئلا يقع في خطأ أو لحن في الكتابة، إذ اللحن من عيوب الكتابة، وهو أمر مستهجن قادح في الكتاب غاية الأمر، ولذلك قالوا: « اللحن في الكتاب أقبح منه في الخطاب ». ([45])

18 - **الإعجام:** وذلك بأن يعجم الناسخ المعجم، ويشكل المشكل، ويضبط الملتبس، ويتفقد مواضع التصحيف. أما ما يفهم بلا نقاط ولا شكل، فلا يعتني به، لعدم الفائدة، فإن أهل العلم يكرهون الإعجام والإعراب إلا في الملتبس والمشتبه. وذلك لأن إعجام الخط يمنع من استعجامه، وشكله من إشكاله. وقال بعضهم: « رب علم لم تعجم فصوله، استعجم محصوله ». وليس كل الناس يعرفون النطق أو القراءة من غير علامات الإعراب، والمبتدئ في فن معين بحاجة ماسة إلى التوضيح، لأنه لا يميِّز ما يشكل وما لا يشكل، ولا صواب الإعراب من خطئه.

([42]) عبد الباسط العلموي، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ص 132-133.

([43]) أبو سعد عبد الكريم التميمي السَّمعاني، أدب الإملاء والاستملاء، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1401 هـ - 1981 م، ص 78-79.

([44]) محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية: صناعة المخطوط المغربي من العصر الوسيط إلى الفترة المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط – المملكة المغربية، الطبعة الأولى 1412 هـ - 1991 م، ص 12.

([45]) أبو بكر محمد بن يحي الصولي، أدب الكاتب، بعناية وتعليق: محمد بهجة الأثري، المكتبة العربية، بغداد – جمهورية العراق، ص 127-130.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وكثيرا ما كانت اللغة سببا في الخلاف بين الفقهاء والعلماء في استنباط الأحكام الشرعية من النصوص. ([46])

وغير ذلك من الأخلاق والآداب ذات الصلة التي تليق بالورَّاق ونحوه، مما يتصل بشخصيته وسلوكه خاصة أو بعمله وتوريقه أو في علاقته مع الآخرين.

أثر الوراقة في نشر المعرفة

أثر الوراقة في تقييد العلم وحفظ المعلومات.

تعتبر الوراقة هي الوسيلة الأساسية البارزة التي ساهمت في تقييد العلم وحفظه من الضياع والذهاب عبر الزمن. وأجل ما قامت به الوراقة في هذا الاتجاه هو حفظ كتاب رب العالمين، بنسخه ونقله إلى العالمين، كذا السنة النبوية. فإن لم يكن للوراقة إلا هذا الفضل، فهو كاف، وهي بذلك حقيقة بكمال الشرف وفضل المنزلة، من الأزل إلى الأبد.

يقول السُّبْكي: « الوراقة هي من أجود الصنائع، لما فيها من الإعانة على كتابة المصاحف وكتب العلم، ووثائق الناس وعُهَدهم ». ([47]) ويقول عنها أبو حامد الفاسي: « هي من أحسن الحرف والأشغال، لما فيها من نشر العلم وتخليده. وقد احترف بها كثير من المقتدى بهم ». ويقول ابن الحاج: « إن هذه الصنعة من أهم الصنائع في الدِّين، إذ بها تصان المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية ». ([48])

أثر الوراقة في نقل التراث الثقافي للأمة.

ساهمت الوراقة إسهامات بارزة في نقل التراث الثقافي للأمة، وذلك عن طريق النقل والنسخ والترجمة في جميع مجالات الحياة الدينية والدنيوية. ولذلك، فقد أثْرت الوراقة المكتبة العربية والإسلامية بالمخطوطات، مما أدى إلى انتشار المكتبات الخاصة والعامة والتجارية، حتى قيل: إن بغداد وحدها كانت تضم ثلاث مائة (300) مكتبة في العصر العباسي. ([49]) ويصف الدكتور محمد عبد السلام هارون أسواق الورَّاقين في بعض الأمصار بأنها كانت بمثابة المعاهد العلمية. ([50]) أي أنها كانت بمثابة مدارس ومراكز علمية مؤسسة يتعهدها الناس لتلقي العلم والمعرفة بمستويات مختلفة.

وعليه: فإن الوراقة حملت التراث الثقافي للأمة عبر الزمن، وقامت باستلاله واستخراجه من رحم التاريخ في الوجود، وتولت نشره بين الأجيال، وحافظت على ثقافة الأمة من الاستلاب والامتهان،

([46]) عبد الباسط العلموي، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ص 135-136.

([47]) تاج الدين عبد الوهاب السُّبْكي، مُعِيد النِّعم ومُبِيد النِّقم، ص 132.

([48]) محمد المنوني، تاريخ الوراقة المغربية، ص 12.

([49]) د. علي بن إبراهيم النملة، الوراقة وأشهر أعلام الوراقين، ص 34-35.

([50]) د. عبد السلام محمد هارون، تحقيق النصوص ونشرها، مكتبة الخانجي، القاهرة – جمهورية مصر العربية، الطبعة السابعة 1418 هـ - 1998 م، ص 20.

www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

وعملت على حراستها وصيانتها باستمرار، بالوقوف بالمرصاد في وجه الثقافات الغريبة المناهضة للثقافة العربية الإسلامية.

أثر الوراقة في نشر المعرفة بين الناس.

أثَّرت الوراقة تأثيرا بالغا في نشر المعرفة والثقافة بين الناس قديما وحديثا، حيث كانت دُور الوراقة مراكز للتنوير والإشعاع، ومحلات للثقافة والفكر والإبداع، اضطلعت بنشر العلم والمعرفة في كافة مجالات الحياة.

وقد أدى الورَّاقون دورا بارزا في نشر الثقافة والعلوم، وأخذ الناس بجميع فئاتهم من حكام وأمراء ووزراء وعلماء وأدباء وطلبة يتسابقون على شراء الكتب، فكان ذلك سببا جوهريا في انتشار حوانيت الورَّاقين في شوارع بغداد، حيث قدر عددها في القرن الثالث (03) الهجري بأكثر من مائة (100) حانوت. ([51]) وقد كانت دكاكين الورَّاقين أماكن ثقافية وملتقيات للأدباء والعلماء والفضلاء، يتذاكرون فيها الحوادث، ويتناشدون الأشعار، ويتجادلون، ويتساجلون، ويبحثون آخر الأخبار الأدبية. ([52]) فلم تكن هذه الحوانيت مجرد دكاكين لنسخ وبيع الكتب وأدوات الكتابة، بل كانت أيضا مجالس ثقافية يرتادها العلماء والأدباء والشعراء، من أمثال: الجاحظ، والمتنبي، وأبي الفرج الأصفهاني، وغيرهم. ([53])

وتصف المستشرقة الألمانية الدكتورة زيغريد هونكه هذا التأثير البارز لهذه الدُور، فتقول: « في سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد، التي كانت تضم أكثر من مائة (100) متجر، كان المتعلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي يجتمعون، هنا يفتِّش الفيلسوف والشاعر والفلكي عما صدر حديثا من الكتب، وهناك ينقِّب الطبيب والمؤرخ وجامع الكتب عن النسخ القديمة، وهنا وهنالك يتناقشون جميعا ويتبادلون المعرفة أو تقرأ عليهم برمتهم مقتطفات مما كتب ». ([54])

فقد كانت سوق الورَّاقين في بغداد وغيرها من البلاد مجالس العلماء والشعراء، كانت تجري فيها المحاضرات والمناظرات، ويُتبادل فيها أطايب الأحاديث والأشعار وطرائف الأقوال والأفكار. وكان الجاحظ يكتري حوانيت الورَّاقين، يبيت فيها للنظر. وكانت دكان سعد الورَّاق في الرها مجلس كل أديب، يغشاها طلاب النصارى، ويتردد إليها شعراء الشام وديار مصر. وكان يتوجه إلى هذه السوق كل راغب في نفائس الكتب ونوادر الأخبار. وكان المتنبي يكثر زيارة سوق الورَّاقين، ومطالعة ما يقع فيها من أحاسن المؤلفات، ويحفظ منها حفظا عجيبا. ولهذه الفوائد التي كانت تجتنى من الجلوس في حوانيت

([51]) د. عبد العزيز بن محمد المسفر، المخطوط العربي وشيء من قضاياه، ص 81.

([52]) د. محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام، ص 79.

([53]) د. عبد العزيز بن محمد المسفر، المخطوط العربي وشيء من قضاياه، ص 81.

([54]) د. زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب: أثر الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون و كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، طبع مشترك بين دار الجيل، بيروت – لبنان، و دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، الطبعة الثامنة 1413 هـ - 1993 م، ص 390.

www.manaraa.com

المجلد: 12/ العدد: 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

الورَّاقين وشهود منادَاة الدلاَّلين، قال المهلَّب بن أبي صفرة لبنيه: « يا بَنِي: لا يقعدن أحد منكم في السوق. فإن كنتم لا بد فاعلين، فإلى زرَّاد، أو سرَّاج، أو ورَّاق ». ([55])

أثر الوراقة في التواصل بين الأجيال.

أثَّرت الوراقة تأثيرا كبيرا ومشهودا في التواصل الفكري والثقافي والربط الأخلاقي بين الأجيال في الأمة الواحدة والوطن الواحد، وغيرهما، بأساليب متنوعة، أساسها العلم والمعرفة والحوار وفق لغة المنطق والإقناع والتأثير. وبذلك استطاعت أن تقارب بين الأجيال المتباعدة في الزمان والمكان، وأن تنقل ثقافات ومعارف الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة، من قديم الزمان، وتحقِّق التفاعل التاريخي والتلاقح الفكري والانسجام الثقافي والإحساس الوجداني بين هذه الأجيال.

فالوراقة نقلت تاريخ البشرية وتاريخ الكون والوجود والطبيعة عامة، وكشفت عن المشتركات البشرية والصلات القائمة والعلاقات المديدة عبر الزمن، وحملت رسالة الأجيال السابقة إلى الأجيال المتعاقبة بأمانة ومسؤولية، فكانت بذلك حقيقة بهذا الشرف، إذ كانت همزة وصل وأداة ربط بين الأجيال في خدمة الأمة والدين والوطن والبشرية عامة.

أثر الوراقة في الحضارة الحديثة.

عكست الوراقة مستوى رفيعا من الحضارة والتقدم والسبق في العلم والمعرفة لم يصل إليه الغرب، إذ كانت ثورة علمية ونهضة ثقافية برسم القلم والمحبرة والقرطاس لم يبلغها أحد في العصور الإسلامية الزاهية، حيث كانت أوروبا تنام في ضحى النهار وتغط في سبات عميق في العصور الوسطى في ظلمات حالكة، وشمس العالم الإسلامي في قمة الإشراق والنور تبعث بأشعتها وأنوارها المسترسلة إلى الغرب تدعوه إلى الاستيقاظ والتفطن واللحاق بركب الحضارة. وفي ذلك، يقول الدكتور خير الله سعيد: « كان سوق الورَّاقين في بغداد واحدا من أشهر الأسواق، في مسايرة حالة التطور الحضاري في حياة الأمة، والورَّاقون فيه سادة الموقف الثقافي، ولهذا كان أبو مظهر الأزدي يفاخر أهل أصبهان في مثل هؤلاء وغيرهم من أهل الصناعة في بغداد، فيقول: « هل أرى عندكم من أرباب الصناعات والمهن مثل ما أرى ببغداد من الورَّاقين والخطَّاطين والخيَّاطين والزرَّادين والمزوِّقين والطبَّاخين والمطربِين، ومن لا يحصى عددا من الحذَّاق ». ([56])

خاتمة

في أعقاب هذا البحث المستفيض في عالم الوراقة، أصل إلى النتائج والتطلعات التالية:

1 - أن الوراقة ظهرت في حياة الإنسان منذ فجر التاريخ، ورافقت المسلم في عصر الإسلام، وأخذت بيده نحو العلم والمعرفة، وضمنت له تقييد القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وغيرهما،

([55]) حبيب زيات، الوراقة والورَّاقون في الإسلام، ص 45-46.

([56]) د. خير الله سعيد، ورَّاقو بغداد في العصر العباسي، ص 180.

www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

ووضع الدواوين العامة اللازمة في الدولة، كذا إثبات الحقوق، وتوثيق المعاملات المختلفة بين الناس، وكانت الوراقة في قلب الإدارة والمجتمع، لإثارة العقل نحو الإبداع ودفع حركية الحياة نحو المعالي.

2 - قامت حضارة الأمة على وسائل القراءة والكتابة، وساهم القلم والقرطاس في نقل معارف وثقافات الأجيال ونشر ما وصلت إليه الأمة من علم ووعي ومعرفة بالكون والوجود وأسرار الحياة، بما حقَّق لها الرقي والازدهار وسيادة المشهد الحضاري في العصور الوسطى حيث كانت أوروبا تعيش في الظلمات الفكرية الحالكة، في حين كانت الأمة الإسلامية تعيشها عصورا ذهبية بفضل العلم والمعرفة.

3 - مهما يكن من أمر، فإن حرفة الوراقة حرفة شريفة، بصرف النظر عن عوائدها المادية ومداخيل أهلها، إذ هي تربط الإنسان بالأجيال المتعاقبة في الوجود والكون عامة، وترفع مستوى الإنسان الثقافي والفكري والعلمي، وتنير دروب الحياة، وتساهم في ترقية الفكر، وزيادة المعرفة، ومقاومة الاستعمار الأجنبي، والاستغلال السيئ للإنسان، وتحرّر الإنسان من الرق، وتحسِّن ظروف معيشته، وترقى بأدائه، وتقوّي درجة كفاءته، وتزيد من فعَّاليته وجدواه، وتفتح أمامه دواليب الحياة، لاستثمارها وفق نواميس الكون.

4 - لا يمكن الاستغناء عن الوراقة والورَّاقين في أي ظرف من الظروف، إذ الوراقة هي سلاح العقل ضد الجهل والأمية والتخلف، والورَّاقون هم بمثابة الأدِلاَّء على العلم والمعرفة، فهم أدوات الوصل بين المؤلف والقارئ، وهم كالمفاتيح في الوصول إلى خزائن المؤلفين وفتح مغاليق المعرفة.

5 - إعادة بعث دكاكين الوراقة وفق المنهج الوراقي، وبثقافة وراقية مناسبة للورَّاقين، لتكون هذه الدكاكين في خدمة الطلبة والباحثين والقرَّاء، وبخاصة في النسخ والتجليد، ونحوهما، وتخليصها مما لا علاقة له بالتوثيق، كالتبغيات والأغاني الماجنة واللوائح الإشهارية والصور المتبرِّجة، وغير ذلك مما لا يستقيم مع أخلاقيات مهنة الوراقة.

6 - ينبغي ترتيب أولويات الوراقة اليوم في المطبوعات والمنشورات المختلفة، بتقييمها من الجانب العلمي، وتقدير المنفعة المترتبة عنها عاجلا أو آجلا، بما يفيد الفرد والمجتمع والأمة في الدين والدنيا والآخرة، وعدم التعويل على الجانب التجاري والاستهلاكي السائد فحسب، حسب لغة السوق وطلبات الشارع، بما قد يملأ الساحة الثقافية والاجتماعية بما قد لا يفيد في شيء، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وأدى إلى فساد الأخلاق، وتدهور القيم، وتراجع العلم الحقيقي بين أهله.

www.manaraa.com

المجلد : 12/ العدد : 02 / الشهر: أوت/ السنة: 2020 ISSN: 1112-8518, EISSN: 2600-6200

7 - لا بد من العناية بالتراث؛ تحقيقا ودراسة ونشرا، لمعرفة الماضي والحاضر، والتمكن من استيعاب المعطيات الحالية ووضعها في سياقاتها المناسبة، وحسن التعامل مع المستقبل، واستشراف الآت، بإذن الله تعالى.

www.manaraa.com